بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة1 الحاج لخضر
كلية العلوم الإسلامية الطاهر حليس
قسم التعليم الأساسي مخبر بحث العلوم الإسلامية في الجزائر

الملتقى الوطني: النهضة الحضارية والثقافة السننية

الثلاثاء 12 نوفمبر 2024م

سؤال النهضة الحضارية عند عبد الحميد بن باديس من خلال خطاب : العرب في القرآن –دراسة سننية–

The question of the cultural renaissance according to Abdel Hamid Ibn Badis through a speech: The Arabs in the Qur'an - a Sounania study -

بيانات الباحث(ة) / طالب(ة) الدكتوراه	بيانات الأستاذ(ة)
الاسم واللقب:	**الاسم واللقب:** .أنيسة زغدود.
التخصص:	**الدرجة العلمية: دكتوراه علوم** .
التسجيل:	**التخصص:** علوم إسلامية - عقيدة -.
جامعة:	**جامعة:** آكلي محند أولحاج - البويرة -
كلية:	**كلية:** كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية.
قسم:	**قسم:** الشريعة
البريد الإلكتروني:	**البريد الإلكتروني:** hodarachad@yahoo.fr..
رقم الهاتف:	**رقم الهاتف:** 00.213.7.780420.07..

ملخص المداخلة:

يتناول البحث منظور الإمام عبد الحميد بن باديس لشروط النهضة والحضارة لأية أمة ، مركزا على الشروط التي هيأت العرب- قديما - فكانت لهم مدنيات وحضارات عظيمة ، ثم على الشروط التي هيأت العرب - بظهور الإسلام - لتحمل أعباء الرسالة الخاتمة وإنقاذ العالم بنهضة حضارية عالمية . وكان الإشكال الرئيس يتمحور حول السؤال: ما هي شروط النهضة الحضارية المتوازنة المتكاملة والشاملة التي تحقق الخير والرحمة والعدل والبركة للإنسانية كما يعرضها الإمام عبد الحميدبن باديس في خطابه (العرب في القرآن) ؟ ويهدف البحث إلى تعميق الوعي بخطورة مخالفة سنن الله في حركة الإنسان في الأرض وفيبناء الحضارة على صعيد جميع المنظومات السننية الكلية الأربعة الغائية والاستخلافية والتسخيرية والوقائية. وفي بيان ذلك قدم الإمام عبد الحميدبن باديس شواهد كثيرة من شواهد التاريخ و شواهد القرآن ، ملما بالمنظومة السننية الكونية التسخيرية التي تضم سنن الله في الآفاق و في الأنفس وفي الهداية و التأييد ، مبينا خطورة الخلل الواقع في الاكتفاء ببعض الكليات السننية دون غيرها أو مصادمتها وضرورة التكامل والتوازن بينها . وتوصل البحث إلى أن الإمامعبد الحميدبن باديس ينظر إلى النهضة كظاهرة اجتماعية متكررة في تاريخ الأمم تحكمها سنن الله المطردة .و أن أي خلل بين هذه المنظومات السننية يؤدي إلى خطر بالأمة،وتميز المنظور الباديسي بحس نقدي تحليلي وبنظرة سننية شمولية تكاملية ،عكست ما كان يحمله الإمام

عبد الحميد بن باديس من وعي سنني شامل وهمّ حضاريإنساني،وخبرة بالواقع التسخيري الذي تجري فيه حركة الإنسان و التاريخ و الحضارة معبرة عن قربها أو بعدها عن المقاصد الغائية للكون و الحياة والإنسان .

الكلمات المفتاحية: النهضة ، الحضارة ، السنن الإلهية، الأمة .

Abstract of the intervention:

The research deals with Imam Abdel Hamid Ibn Badis' perspective on the conditions for renaissance and civilization for any nation, focusing on the conditions that prepared the Arabs - in ancient times - and they had great civilizations and civilizations, and then on the conditions that prepared the Arabs - with the emergence of Islam - to bear the burdens of the final message and save the world with a global civilizational renaissance.The main problem revolved around the question: What are the conditions for a balanced, integrated and comprehensive civilizational renaissance that achieves goodness, mercy, justice and blessing for humanity as presented by Imam Ben Badis in his speech (The Arabs in the Qur'an)?The research aims to deepen awareness of the danger of violating God's laws in human movement on earth and building civilization at the level of all four comprehensive Sunnah systems, teleological, controversial, subservient, and preventive.In explaining this, presented many evidences from history and the evidences of the Qur'an, familiar with the universal Sunnah system of subjugation, which includes God's laws regarding horizons, in souls, and in guidance and support, indicating the seriousness of the imbalance that exists in being satisfied with some Sunnah universals without others, or clashing with them, and the necessity of integration and balance. Between her.The research concluded that Imam Ibn Badis viewed the Renaissance as a recurring social phenomenon in the history of nations governed by God's consistent laws. Any imbalance between these Sunnah systems would lead to danger to the nation. The Badisian perspective was distinguished by a critical, analytical sense and a comprehensive, complementary Sunnah view that reflected what the ImamBen Badis held. From a comprehensive Sunni awareness, a human civilizational illusion, and an experience of the transcendental reality in which the movement of man, history, and civilization takes place, expressing its proximity or distance from the teleological purposes of the universe, life, and man.

Keywords:*Renaissance, civilization,Divine Sunnahs , nation,*

مقدمة

الإشكالية:يتمثل الإشكال الرئيس للدراسة في هذا السؤال: ما هي شروط النهضة الحضارية المتوازنة المتكاملة والشاملة التي تحقق الخير و الرحمة والعدل والبركة للإنسانية كما يعرضها ابن باديس في خطابه (العرب في القرآن) ؟ و يتفرع عن هذا ا ل إشكال الرئيس إشكالات جزئية يتناولها البحث وهي: ماهي خصائص العرب الذاتية التي أهلتهم للنهضة قديما ؟ كيف هيأ ال قرآن العرب للنهضة الحضارية الإسلامية؟ لماذا أهلك الله الحضارات العربية السابقة ؟أين كان الخلل ؟ وما فائدة الوعي بالمذ ظور السنني الكلي الشامل لتحقيق النهضة الحضارية في حياتنا المعاصرة؟

الأهمية:وتظهر في الحاجة إلى التعرف على شروط النهضة الذاتية و الموضوعية الخاصة بالعرب كما بينها القرآن وشهد بها التاريخ .والحاجة إلى الوقوف على معالم التفسير السنني الكلي الشامل للنهضة الحضارية .والوقوف على الاختلالات الكبيرة ال تي أودت بالأمم السابقة إلى الخراب و الهلاك و الزوال من أجل الاعتبار الذي أمرنا الله به حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فيحد ث لنا ما حدث لهم ، وكذا الحاجة إلى الاعتبار بأحوال و أيام بني إسرائيل .

الأهداف:و تتمحور حول بيان أهمية البعد الروحي والأخلاقي في خراب الأمم و زوال الحضارت .و بيان المخزون النفسي والأخلاقي والمادي والاجتماعي للعرب قديما في بناء الحضارات .ونشر وترسيخ الوعي بالحاجة إلى منظور السننية الشاملة في

حياتنا الفردية و الاجتماعية و الوعي بأزمتنا الحضارية وسبيل الخروج منها بمنهج تأصيلي سنني شامل،وتعميق الوعي بخطورة تكرار الأخطاء المخالفة لسنن الله في حركة الإنسان في الأرض على صعيد جميع المنظومات السننية الكلية .

المنهج المتبع:بما أن موضوع البحث يدخل في مجال الدراسات الوصفية فإن المنهج المناسب الذي اعتمدت عليه هو المنهج ا لوصفي التحليلي الذي يتتبع ظاهرة النهضة الحضارية ليقف على شروطها وخصائصها من خلال الشواهد التاريخية و القرآني ة معا - كما يعرضها ابن باديس -من أجل الوصول إلى نظرة كلية تفسر بها العلاقات بين الشروط المتنوعة لظاهرة النهضة ا لحضارية وبيان خطورة ومآلات وضع التجزيئية أو الاختلال أو التصادم بين هذه الشروط.

الدراسات السابقة:لم أجد -حسب علمي- دراسة أفردت خطاب ابن باديس(العرب في القرآن) بالتحليل وبهذا العنوان ،ولا شك أن الباحثين في فكر ابن باديس وقفوا على هذا الخطاب (العرب في القرآن) واستفادوا منه حسب ما تقتضيه اتجاهات أبحاثهم ،لكنني وجدت كتابا بعنوان :سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائريللدكتورة لطيفة عميرة ولكنني لم أتمكن من قراءته و لا تحميله لأنه غير متاح بسبب حقوق النشر للمؤلف .

عناصر المداخلة:أولا -مفهوم النهضة الحضارية بالمنظور السنني الكلي الشامل.ثانيا :المقاصد الكلية الغائية لاختيار العرب للنهضة الحضارية العالمية. ثالثا :الشروط السننية الكلية الاستخلافية التي رشحت العرب للنهضة الحضارية العالمية.رابعا :الشروط السننية الكلية التسخيرية التي رشحت العرب للنهضة الحضارية العالمية.خامسا : أخطار مصادمة المنظور السنني الشامل للنهضة الحضارية.سادسا :خاتمة : فيها نتائج البحث والآفاق والتوصيات .

أولا -مفهوم النهضة الحضارية بالمنظور السنني الكلي الشامل

1 -تعريف النهضة لغة واصطلاحا :

1-1النهضة لغة :اسم مرَّة من نهَضَ والجمع نَهَضات و نَهْضات، ولها دلالات كثيرة منها :الطاقة والقوة والحركة و الهمة .أما الفعل ناهض فيدل على : المحاربة والمقاومة و المواجهة .

و(نهض) النون والهاء والضاد أصل يدل على حركة في علو.ونهض من مكانه قام.وما له ناهضة أي قوم ينهضون في أمره ويقومون به.ويقولون ناهضة الرجل بنو أبيه الذي يغضبون له.ونهض النبت استوى.والناهض:الطائر الذي وفر جناحاه وتهيأ للنهوض والطيران.ونهاض الطرق صعدها وعتيها الواحدة نهضة.وأنهض البعير ما بين كتفه إلى صلبه.[1]

وفي لسان العرب : النُّهوضُ: البَراحُ من الموضع والقيامُ عنه.وانتهض القومُ وتناهَضوا: نهَضُوا للقتال. وأَنْهَضَه: حَرَّكه لـ لنُّهوض. واسْتَنْهَضْته لأَمر كذا إِذا أَمرته بالنُّهوض له. وناهَضْتُه أَي قاوَمْتُه.والنَّهْضةُ: الطَّاقةُ والقوَّةُ. وأَنهضه بالشيء: قوَّاه على النُّهوضِ به. والناهِضُ: فرْخُ العُقاب الذي وفُرَ جناحاه ونَهضَ للطيران.والنَّواهِضُ: عِظامُ الإِبل وشِدادُها. ناهِضةُ الرجل بنو أَ بيه الذين يَغْضَبُون بغَضَبه فيَنْهَضُون لنَصْره. والناهِضُ: رأْس المنكب،وقيل: هو اللحم المجتمع في ظاهر العضد من أَعْلاها إِلـ ى أَسفلها.وطريق ناهِضٌ أَي صاعِدٌ في جبل.ومكان ناهض : مرتفع ،والنَّهْضةُ، بسكون الهاء: العَتَبةُ من الأَرضِ[2].

1-2-النهضة اصطلاحا: في المعجم الوسيط : النَّهْضَة الطَّاقَة وَالْقُوَّة والوثبة فِي سَبِيل التَّقَدُّم الاجتماعي أَو غَيره. [3]ويعكس مصطلح النّهضةّ قصدية إرادية تتعلق بمقاصد الحضارة ، ويراد بالمشروع النّهضوي تحقيق

---

[1]أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار الجيل ،1422ه/ 1999م، ج5، ص364.

[2]ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، 2003م، ج14، ص370.

[3]نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة،المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية بالقاهرة،دار الدعوة بإستانبول، ودار الفكر ببيروت، ال طبعة الثانية ، 1392ه/1972م، ج 2، ص959.

القطيعة مع ظاهرة أفول أو سقوط الأمة أو الجماعة، ويتجسد ذلك من خلال وضع رؤية متكاملة مُسيجة بأسئلة ثورية لا بأسئلة تبريريةمن خلالوضع فلسفة إحيائية بنائية، تُمكن الأمةَ من وضع أولى خطوات الانبعاث الحضاري.[1]

و النهضة حركة فكرية عامة حية منتشرة تتقدم باستمرار في فضاء القرن وتطرح الجديد دون قطيعة مع الماضي وتشمل مجالات العلم والدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع وما إلى ذلك .[2]وهي في الواقع نتيجة لتنمية م ستدامة في مجالات الحياة العامة على المستوى الإنساني من حيث التعليم والصحة والحالة المعيشية،وعلى المستو ى المادي من حيث العمران والسكن والطرق والمباني والخدمات عامة،و على المستوى النظامي من حيث التطبيق وا لالتزام والعدالة في الحقوق والشفافية،وعلى المستوى السياسي من حيث الشورى والمساواة وتكافؤ الفرص،و على المستوى الفكري من حيث المفاهيم والقيم وحرية التفكير والتعبير والحوار.[3]

2– تعريف الحضارة لغة واصطلاحا :

2-1الحضارة لغة :يرى ابن فارس أن مادة (حضر)أصل واحد ولكن تتسع لمعاني كثيرة :منها إيراد الشيء وورود ه ومش اهدته،ومنها العدويقال حاضرت الرجل إذا عدوت معه،ومنه الآفة قول العرب اللبن محضور فمعناه كثير الآفة ويقولون إن ا لجان تحضره.[4]والحَضَر :خلاف البدو، والحَضَارة والحِضَارَة :السكون بالحضر، كالبداوة والبداوة، ثمّ جعل ذلك اسما لشهاد ة مكان أو إنسان أو غيره،مثل حضور الموت والقسمة والجن والأنفس والخير والقرية والتجارة والشرب في القرآن.[5]

وفي لسان العرب من الفعل حضر يحضر حضورا،و الحضورنقيض المغيب والغيبة،والحضرة قرب الشيء ،ورجل حضر : لا يصلح للسفر ،والحاضرة والحاضر : الحي العظيم أو القوم،ويقال للمقيم على الماء : حاضر ، وجمعه حضور .والح ضيرة : جماعة القوم. والحضيرة : ما تلقيه المرأة من ولادها . والحضرة : الشدة . والمحضر : السجل . والمحاضرة : المجالدة ، و هو أن يغالبك على حقك فيغلبك عليه ويذهب به. ورجل حضر : ذو بيان .ناقة حضار إذا جمعت قوة ورحلة يعني جودة المش ي .[6]

2-2الحضارة اصطلاحا:الحضارة هي حالة من بناء النموذج المنشود في عالم الواقع متمثلا في نموذج فكري متقدم ، وعالم علاقات ذو سلوك متقدم ، وعالم من الإنتاج المادي الصناعي والمعماري والفني متقدم.[7]وهي حصيلة تفاعل الجهد لإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية،من أجل الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني في عالم الشهادة.[1]

---

[1] بوعرفة عبد القادر،سؤال النهضة في الفكر العربي المعاصر،https://www.aljazeera.net/blogs11/4/2019

[2] جاسم محمد سلطان، استراتيجية الحراك للإدراك (من الصحوة إلى اليقظة)مؤسسة أم القرى للترجمة و التوزيع، المنصورة ، الطبعة الرابعة ، 14 31ه/ 2004م، ص7 .

[3] عبدالمحسن بن عبدالله الماضي،النهضة والحضارة،https://www.al-jazirah.com الأربعاء 10 أغسطس 2022 ،

[4] أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا ، معجم مقاييس اللغة ،ج2، ص- 75-76.

[5] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد،المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي،دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت،الطبعة الأولى ،1412ه، ص241.

[6] ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، لسان العرب ، دار صادر - بيروت،2003م،ج4، ص149- 150 .

[7] جاسم محمد سلطان، استراتيجية الحراك للإدراك (من الصحوة إلى اليقظة)، ص46 .

أما الحضارة عند ابن خلدون فهي التفنن في الترف والكَلَف بالصنائع .وهي غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده؛ذلك أن الملك والدولة غاية العصبية، والحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك ورعية له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرًا محسوسًا، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط،والحضارة في العمران أيضًا كذلك؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها.[2]

بينما يقدم مالك بن نبي تعريفين للحضارة ، أحدهما تعريف وظيفي للحضارة باعتبارها تعني مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه.[3]

وأما الثاني فهو التعريف التحليلي من وجهة نظر علم الاجتماع لمادة الحضارة من خلال عيناتها أي منتجاتها الاجتماعية في جميع أشكالها ،فإن محتواها أو مادتها الجوهرية تؤول إلى ثلاثة حدود هي: التراب، الزمن والإنسان.وهذه الثلاثة لا تمارس مفعولها ضمن حالة شتيتة ولكن ضمن تركيب متآلف في مهد فكرة دينية .[4]

3-تعريف النهضة الحضارية السنني الشمولي :

حسب تعريف الطيب برغوث النهضة الحضارية هي وعي ثقافي سنني متكامل منبثق عن رؤية سننية كونية متكاملة ، ومجسد في أنظمة الحياة الفكرية والثقافية والتربوية والاجتماعية والسياسية للمجتمع.[5]

ولما كان مفهوم النهضة هو مفهوم الحراك الاجتماعي لعصر ما نحو الفاعلية الحضارية.[6] ولما كان تعريف الحضارة بالمنظور السنني الشامل هو :الحضارة هي حصيلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الله ،وفق رؤية كونية محددة من أجل الترقي المعرفي ،والترقي الروحي، والترقي الأخلاقي، والترقي المدني أوالعمراني إنجازا لمهمة الاستخلاف واستعدادا لوراثة الجنة.[7] والحضارة :هي مستوى من مستويات التطور التصاعدي أو الترقوي الذي يصل إليه العمران البشري في أي مجتمع

---

[1] برغوث الطيب ،موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الطبعة الأولى، 1413هـ/ 1993م، دار الينابيع للنشر و التوزيع، الجزائر، ص10.

[2] ابن خلدون عبد الرحمن ، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،ضبط المتن ووضع الحواشي وا لفهارس: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار،دار الفكر، بيروت،الطبعة الأولى، 1401هـ/ 1981م،ج1، 465.

[3] بن نبي مالك ، القضايا الكبرى، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق سورية ، الطبعة الأولى، 1412هـ/1991م، ص43.

[4] بن نبي مالك ، القضايا الكبرى ، ص54- 60.

[5] برغوث الطيب، حركة المداولة الحضارية وشبكة القوانين الكلية المؤثرة فيها منظور سنني قرآني مقاصدي، جانفي 2019م، دار النعمان للطباعة و النشر، الجزائر، ص 202- 203 .

[6] جاسم محمد سلطان، استراتيجية الحراك للإدراك (من الصحوة إلى اليقظة)، ص 20 .

[7] برغوث الطيب، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية ، الطبعة الأولى ، 1416هـ/ 1996م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هيرندن ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ص 47 .

من المجتمعات الإنسانية ، بحيث يستطيع هذا المجتمع أن يلبي ضرورات و حاجات وتحسينيات أفراده ، و أن يحمي وجوده ، و يضمن استمراريته التاريخية، و يتطلع إلى المنافسة و المداولة الحضارية في عصره .[1]

فيمكن أن نصل في الأخير إلى هذا التعريف الإجرائي الذي يركب بين مفهوم النهضة ومفهوم الحضارة بالمعنى السنني الشمولي، ونحرره في صياغتين :

-النهضة الحضارية : هي الحراك الاجتماعي مع سنن الله لعصر ما ، وفق رؤية كونية محددة من أجل الترقي المعرفي، والترقي الروحي، والترقي الأخلاقي، ولترقي المدني أوالعمراني إنجازا لمهمة الاستخلاف واستعدادا لوراثة الجنة.

-النهضة الحضارية : هي حراك مجتمع من المجتمعات الإنسانية لعصر ما مع سنن الله في الآفاق و في الأنفس وفي البداية وفي التأييد ، نحو التطور التصاعدي أو الترقوي الذي يصل إليه العمران البشري، بحيث يستطيع هذا المجتمع أن يلبي ضرورات و حاجات وتحسينيات أفراده، و أن يحمي وجوده، و يضمن استمراريته التاريخية، و يتطلع إلى المنافسة و المداولة الحضارية في عصره .

ثانيا :المقاصد الكلية الغائية لاختيار العرب للنهضة الحضارية العالمية

من المسلّم به أن كل أمة و كل نهضة وكل حضارة لها مرجعيتها الفكرية والقيمية التي تحدد فلسفتها في الحياة تجاه القضايا الكبرى للوجود.وما يميز جوهر الدّين السماوي هو حضور البعد الغيبي في توجيه حركة الحياة الكونية في جميع مساحاتها المادية والإنسانية.وعلى أساس ذلك نتناول هذا المبحث في عنصرين :1- إرادة الله في حركة التاريخ الإنساني .2- العرب ومقاصد الرسالة الخاتمة.

1-إرادة الله في حركة التاريخ الإنساني :

يرى ابن باديس أن الله تعالى اختار العرب لتحمل أعباء تبليغ رسالة الإسلام للعالمين[2] ،وحتى نفهم هذا الاختيار الإلهي للعرب لا بد من الوقوف عند مسألة دورة النبوة كظاهرة إنسانية تاريخية .ويسعفنا هنا ابن باديس إذ عمد في خطابه (العرب في القرآن) إلى الحديث عن الأقوام العربية التي أهلكها الله تعالى وعن بني إسرائيل وعن العرب، حديثا عميقا يدخل في فقه النهضة وسنن الحضارة والاستخلاف البشري، وسوف نتناول هذه الرؤية الباديسية موزعة على عناصر خطة البحث .

ونكتفي هنا ببعض المفاهيم التي يطرحها محمد أبو القاسم حاج حمد الذي يرى أن مفهوم الحركة في التاريخ البشري تستوي خصائصه المرحلية كأشكال دائرية بدءا من الشكل الفردي إلى الشكل القومي إلى الشكل العالمي ؛أي إن التطور البشري يمرعبرثلاثة مراحل : المرحلة الأولى هي المرحلة الآدمية والمرحلة الثانية هي المرحلة الإسرائيلية والمرحلة الثالثة المرحلة العربية - الأمية خارج معنى اللفظ القومي -أي المحمدية .[3]

وفي هذا كله تتجلى إرادة الله في حركة التاريخ وبناء الإنسان للحضارة وفق المنهج الإلهي والصراع مع المنهج الوضعي الذاتي المضاد المقابل له .ففي قصة آدم و إبليس تجسد الصراع بين آدم ومكوناته التي استقطبها عنصر النار ، وفي قصة موسى وقومه مع فرعون وقومه تجسد الصراع بين المنهج الإلهي والمطلق الذاتي القومي ، وفي الشكل الأخير شكل العالمية يصبح ا

---

[1] برغوث الطيب ، حركة المداولة الحضارية وشبكة القوانين الكلية المؤثرة فيها، ص 31 .

[2] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب، محرم 1385هـ/فيفري 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، الطبعة الأولى،14 21هـ/2001م،ج1، مج 15، ص23

[3] أبو القاسم محمد حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية ، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ،الطبعة الثانية ،1416هـ- 1996م، مج2، ص 23- 24.

لعرب ليس كقومية ولكن كفاتحة لعالمية المنهج : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُو نَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ آل عمران:110. في مقابل عالمية المنهج المضاد وهي الحضارة الأوربية .[1]

فالمؤلف يركز على أن صناعة التاريخ وصيرورة التاريخ ماهي إلا تفاعل بين الغيب والإنسان والطبيعة أو بين الله و الإنسان والكون، بين الله الخالق والإنسان المستخلف والكون المسخر له لتقوم الحضارة وينبني العمران وتسود العالمية وتنط لق باتجاه الظهور الكلي للدين على الدين كله.[2]

ويمكن تقديم ملخص للمرحليات في التجارب الدينية نستصحبها في البحث كرؤية كلية مفاهيمية تمهيدية كما ضب طها المؤلف في كتابه كما يلي:

ا - هناك الأطوار أو المراحل التاريخية الثلاثة للخطاب الإلهي المتداخل مع خصائص التكوين الإنساني من الفردية الـ عائلية الآدمية وإلى القبلية القومية وأبرزها الشكل الإسرائيلي وإلى العالمية بمرحلتيها : العالمية الأولى وهي عالمية الأميين التي اتـ سعت للشعوب الأمية ما بين المحيطين الهادي شرقا و الأطلسي غربا وفي الوسط من العالم القديم شاملة لمعظم الشعوب الأ مية - ليس لها كتاب -ثم العالمية الإسلامية الثانية والشاملة بإذن الله، فهذه هي الأطوار والمراحل التاريخية الثلاثة الكبرى في ا لدورات الدينية .

ب- هناك الأطوار أو المراحل التاريخية الثلاثة ضمن نطاق التجربة الإسرائيلية ذاتها . فالطور الأول يعتمد على التج ربة الإيمانية الحسية المباشرة وما فيها من معجزات خارقة و تبتدئ بموسى حيث كانت الحاكمية الإلهية المباشرة وحكم الله ع بر تعاقب الأنبياء الذين لا تنقطع سلسلتهم ، فكلما مات نبي أعقبه نبي .ثم حين تمرد الإسرائليون على الحاكمية الإلهية المباشـ رة دفعهم الله في الطور الثاني إلى تجربة الإيمان غير الحسي أي الإيمان بفعله الغيبي غير المرئي، وذلك في معركتهم ضد جالوت وجنوده .وتلك كانت حالة استثنائية وضعهم الله فيها أمام محك الاختبارالصعب بالإيمان الغيبي .ولم تصمد تلك التجربة لديهـ م إذ تمرد معظمهم سواء برفضهم لطالوت ملكا أو شربهم من ماء النهر الممنوع ، فلم يتبق منهم إلا القلة الاستثنائية الصابرة التي تولى الله نصرها . ثم جاءت المرحلة الثالثة عبر حاكمية الاستخلاف لداود وسليمان عليهما السلام.

ج-أما التجربة المحمدية فقد جاءت ضمن نسق آخر متكامل؛ فعوضا عن تجربة الإيمان الحسي ، جاءت تجربة الإيـ مان الغيبي ، و بالتالي فعوضا عن الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف جاءت حاكمية الكتاب وعوضا عن النبوات الإسرائيـ لية المتعاقبة جاءت النبوة الخاتمة .

د-وكما تتمفصل المراحل الإسرائيلية بين الحسّي والغيبي الاستثنائي ثم حاكمية الاستخلاف، تتمحور التجربة الإسلا مية المحمدية إلى اثنتين : فالمرحلة الأولى عالمية أمية ثم مرحلة عالمية ثانية وشاملة تتصل بها وترثها ضمن متغيرات عالمية .[3]

2-العرب ومقاصد الرسالة الخاتمة :

يقرر ابن باديس أن العرب هيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ثم يؤصل لهذا المقصد الإلهي من اختيار العرب للنهضة الحضارية الإسلامية فيقول: "ولأن الله- الحكم العدل الذي يضع الأشياء في موا

---

[1] أبو القاسم محمد حاج حمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج 2 ، ص 26.

[2] العلواني طه جابر ، مقدمة الطبعة الثانية ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج 2 ، ص 16

[3] أبو القاسم محمد حاج حمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج 2 ، ص 58-59.

ضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته -ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة إذ لا ينهـ ض بالجليل من الأعمال إلاّ الجليل من الأمم والرجال، ولا يقوم بالعظائم إلاّ العظام من الناس.[1]"

وهذا النص يحمل دلالات كثيرة ومنها أن الإرادة الإلهية الحكيمة هي التي اختارت العرب تحديدا للنهوض بدعو ة الإسلام المحمدية الخاتمة ، و أن أمة العرب فيها استعدادات تؤهلها لحمل هذه الرسالة -قديما وحديثا -وأن هذا الاخ تيار الإلهي يقتضي أن تكون أمة العرب في كل أطوار التاريخ حاضرة في المشهد الإنساني المتدافع نحو المداولة و الاستخ لاف برسالة الإسلام وأمانة التبليغ مما يقتضي منها واجبات كثيرة تتغير بتغير التحديات والابتلاءات ، ومنها أن نصحح نظرتنا للعرب التي فيها كثير من الازدراء والتحقير لمقوماتهم وأعمالهم وآثارهم .

وحتى نفهم مقاصد اختيار الله تعالى العرب للنهضة بالإسلام ، لا بد من العروج على خصائص الرسالة الخاتمة فهي المشكاة التي يستمد منها العرب مقاصدهم .وابن باديس يمدنا في هذا ،إذ يحدد خصائص النبوة الخاتمة - التي اختص بها محمد دون سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين في مقال له (درس ختم الموطأ) ويمكن أن نلخصها فيما يلي :

ا-محو الكفر علميا وعمليا به ﷺ .ب- ظهور الإسلام على الدّين كلّه .ج- جمع النّاس جميعا على شريعته فلا يقبل من أحد شيئا إلا باتباعه.[2]

يؤكد ابن باديس أن النّبي ﷺ اختص باسم الماحي ومعناه ، وإذا راجعنا تاريخ الأنبياء والمرسلين ، فإننا لا نجد أحدا محي به من الكفر ما محي بمحمد ﷺ .ثم ضرب مثلا بدعوة النبيين الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام ، فإنهما لم يرسلا بر سالة عامة حتى يعم المحو بهما و إنّما أرسلا رسالة خاصة لبني إسرائيل .و الثانية أنهما لم يأتيا من الآيات بمثل ما أوتي به لمحـ و كل كفر و باطل وكفى بآية القرآن الخالدة على الزمان المتجددة على الأجيال .و الثالثة أن ما قاسى موسى من بني إسرائيل الـ ذين ما جفت أقدامهم من ماء البحرحتى قالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وما تقصه كتبهم ،يدل على أنه لم ترسخ لهم قدم في الإيمان ، وأما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه و ما آمن به إلا أفراد ثم بقيت دعوته مغمورة ، وما انتشرت النصرانية المنسوبة إليه باطلا إلا بعد ثلاثمائة سنة على يد ملك بيزنطا قسطنطين .[3]

ويقرر ابن باديس أن المحو كما ثبت به ﷺ مباشرة في الأكثر الأظهر ، فإن المحو يكون على يد أتباعه إلى يوم الدين .و هو محو به وله على قاعدة السابق للخير والبادئ به والداعي إليه .[4]وبهذا تكون الرسالة الخاتمة و الأمة الحاملة لهذه الرسالة الخاتمة قد حققت مقصد التوحيد المناقض للكفر والشرك على وجه أكمل مما سبق وأوسع .

وقد رفع الله الأميين العرب إلى مرتبة الإسلام بحكم ارتباطهم بثلاثية البيت الحرام وختم النبوة وآخر الرسالات وجها دهم في سبيل الله .[5] وهذا هو دور العرب إزاء هذه الخصائص الخاتمة للنبوة المحمدية .

فأمة العرب التي أسلمت هي وارثة لهذه الخصائص باعتبارها أمة الإجابة والدعوة .فقد جاء النبي صلى الله عليه و آ له وسلم بأدلة قاطعة و براهين ساطعة على صدقه في كل ما جاء به من الحق و الهدى و النور ، جاء من ذلك بما لم يأت به غـ يره وكل ذلك محو و إزالة للكفر في العالم العلمي، و أما الثاني فإنه ﷺ جاء و الأرض في ظلمة من الكفر بين ضلال أهل الكتا ب ووثنية المشركين و أنواع أخرى من كفر الكافرين ، فدعا إلى الله وصبر وجاهد ، فما مات ﷺ حتى انتشر الإسلام في جزيرة الـ

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص23.

[2] ابن باديس عبد الحميد، درس ختم الموطأ(1) ، الشهاب ، رجب1385هـ/أوت 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ،ج7، مج 15، ص 362-363-364.

[3] ابن باديس عبد الحميد، درس ختم الموطأ(1)، الشهاب ، ج7، مج 15، ص 365.

[4] ابن باديس عبد الحميد، درس ختم الموطأ(1)، الشهاب ، ج7، مج 15، ص 366.

[5] أبو القاسم محمد حاج حمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج1 ، ص 65.

عرب كلها التي كانت سببا في إنقاذ البشرية ومصدرا لهدايتها فهذا محو عملي .ومحو آخر وهو أنه ﷺ زويت وطويت له الأرض حتى شاهد مشارقها ومغاربها وقيل له أنه ستبلغ دعوته إلى ما زوي له منها ، وقد كان كذلك ، في الأمد القصير ظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وانحنى سلطان الكفر وتهدمت عروش الجبابرة عرش القياصرة بالشام وعرش الأكاسرة بالعراق وتتابع المحو و الإزالة .[1] وبهذا تكون الرسالة الخاتمة قد بلغت أكمل وجه لها وأوسعه في تعبيد الناس لله وحده ونقض كل الطواغيت.

يرى محمد أبو القاسم حاج حمد أن العربي هو حامل خصائص العالمية الإسلامية الثانية والشاملة ، كما حمل من قبل خصائص العالمية الإسلامية الأولى ، فمن يرد إدانة الشخصية العربية اليوم ويهمشها ، عليه أن يبتدئ بتهميشها والحط من قدرها منذ أن باشرت دورها تحت قيادة النبي والرسول الخاتم من قبل ، فمن ذا الذي كان يفكر أن حفنة من الأعراب ستحتمل حضارة شبه عالمية بديلة لتستوي بها ما بين المحيطين الأطلسي غربا والهادي شرقا منطلقة من الوسط في العالم ، ثم تتحسر إلى هذا العالم مجددا لتبني لكيانها المعاصر من بعد الضغط التتري شرقا والإفرنجي غربا ؟[2]

كما يتضمن هذا المقصد الغائي - وهو اختيار الله العرب لحمل رسالة الإسلام للعالمين - مقاصد أخرى كلية عقدية و إنسانية ، متجددة في الواقع البشري ، ومنها الحفاظ على الكرامة الإنسانية الفطرية وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم،ومنها مقاومة أعداء الإنسانية الذين يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس، ليستذلوا من هذا النوع ما أعز الله، ويهينوا منه ما كرم الله.[3]

وعليه فيمكن القول أن الطور الثالث خصت به أمة الإسلام التي قامت بالأمانة أداء وتبليغا وطاعة للرسول وعملا بالشريعة فكانت لها النهضة الحضارية العالمية الأولى والانتشار الإنساني الذي اتسم بالعدل والرحمة والخيرية.وفي سياق هذه المفاهيم نكون قد مهدنا لفهم ما سيأتي في العناصر الموالية.

ثالثا :الشروط السننية الكلية الاستخلافية التي رشحت العرب للنهضة الحضارية العالمية

باعتبار الاستخلاف يعني الفعل الحضاري في الكون ضمن ما هيأه الله للإنسان من قدرات ووعي يتكافأ و أوضاعه الكونية .[4] فإننا نتناول هنا الحديث عن الأمتين الإسرائيلية والعربية ،حسب مرحلة ومكانة و وظيفة وغايات و آفاق كل منهما من الدورة التاريخية الاستخلافية .وذلك في عنصرين هما : 1-خصائص المرحلة الاستخلافية لبني إسرائيل .2- خصائص المرحلة الاستخلافية العربية المحمدية .

1-خصائص المرحلة الاستخلافية لبني إسرائيل :

سبق لنا أن عرفنا أن دورة النبوة أو الدين في الحركة التاريخية الاستخلافية مرت بأطوارمختلفة الخصائص، وقد مثل بنو إسرائيل أو اليهود وهم قوم موسى عليه السلام طورا من أطوار النبوة في دورتها الإنجازية كانت ضيقة ومحدودة في آفاقها باعتبار عالمية الرسالة المحمدية الخاتمة وخصوصياتها التي سبق ذكرها ، ولكنها كانت ثرية جدا للمعتبرين ، ولذلك قدمنا الحديث عن هذه المرحلة تمهيدا للمرحلية العربية .

وفي بيان البعد الغائي في استخلاف بني إسرائيل فإن ابن باديس يرى أن الله تعالى اختار بني إسرائيل للنهوض بأنفسهم نهضة ذاتية قومية بحكم ظروفهم وخصائصهم، فيقول في سياق رده على من يقول إن بني إسرائيل اختارهم الله وفضلهم

---

[1] ابن باديس عبد الحميد، درس ختم الموطأ(1)، الشهاب ، ج7، مج 15، ص 362- 363.

[2] محمد أبو القاسم حاج حمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج1، ص 50.

[3] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 25.

[4] أبو القاسم محمد حاج حمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج2 ، ص 24.

م على العالمين- متوهما للعالمية -:"والجواب الذي يشهد له الواقع أنه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون، وليكونوا مظهراً للنبوة والدين في أول أطوارهما، وأضيق أدوارهما؛ وهذا هو الواقع. فإن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله، وأن تظهر دين الله على الدين كله. وأما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا بأنفسهم إلاّ بعد موسى بزمن، مع اتصال حبل النبوة ومعاداة الوحي الإلهي ومراوحته لهم".[1]

إذن فقد اختارهم الله لينقذوا أنفسهم من بطش فرعون وهذه نهضة ذاتية ضد الظلم والاستعباد والإذلال.واختيار الله لبني إسرائيل تتجلى فيه الحكمة الإلهية الواسعة فهو اختيار سنني مقصود، وقد تجلت الحكمة في سنة الابتلاء وما تستلزمه من سنن أخرى تتوزع في منظومة كلية سنن الاستخلاف .

ويؤكد ابن باديس أن أمة بني إسرائيل هيئت لقيام نهضتها القومية دون الحضارية العالمية فإنها لم تُهيَّأ لإنقاذ غيرها ، وإنما هيئت لإنقاذ نفسها فقط؛ لأن مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى الدرجة العليا؛ ولذلك عانى موسى ما عانى مما قصه القرآن علينا؛ لنعتبر به في الحكم على الأمم.[2]

وكانت نهضة موسى بهم ليس من أنفسهم بل بالخوارق. ولم ينهضوا بأنفسهم إلا بعد الـتيه وبعد موسى وبسياسة الأنبياء لهم بالوحي والحكمة،وأخذ الله لهم بالعقوبات المتكررة على الاعتداءات المتكررة مما هو معروف من تاريخهم في كتبهم و ما قصه القرآن عنهم من قصصهم، ما يدل على فساد ذخيرتهم النفسية .

ويحسن بنا أن نتعرف على خصائص نهضة بني إسرائيل الذاتية وما لابسها من انحرافات وما وصلت إليه من نتائج و نذكر ذلك مع شيء من الاختصار والتركيز كما يلي[3]:

ا- النص الإلهي لبني إسرائيل يتجه إلى خطاب القومية (يابني إسرائيل) :﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: 40،وفي محاورة موسى لفرعون يطالب بخروج بني إسرائيل :﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾الأعراف: 105.

ب- النص الإلهي يأمرهم بالتوطن في الأرض المقدسة :﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ المائدة:21.

ج-اتسم المسار اليهودي / الإسرائيلي بخوارق المعجزات الحسية وذلك في التدافع بين موسى والسحرة حين ألقى عصاه فالتقفت ما يأفكون:﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الشعراء: 45.وفي شق البحر والسير بين جنبيه :﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾الشعراء: 63،وفي تضليلهم بالغمام ونعمة المن والسلوى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة : 57، وفي انفجار الينابيع من الصخر:﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة: 60، وفي تحدي العناد الفرعوني بآيات حسية :﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف : 132 .

د-اتسم التشريع الإلهي لبني إسرائيل بالعقوبات الحسية الغليظة، والتي امتدت إلى تحريم ما هو حلال نتيجة ظلمهم وطغيانهم :﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾النساء :160-161.

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 25-26.

[2] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 25.

[3] أبو القاسم محمد حاج حمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، مج1 ، ص 510- 518.

هـ-مسخهم إلى قردة وخنازير حين غضب الله عليهم بسبب اعتدائهم في السبت وعبادتهم الطاغوت:﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾المائدة 60.

و-نتق الجبل فوقهم :﴿و إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾البقرة :93.والصعق والموت ثم البعث في الدنيا من جديد :﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة : 55- 56.

ي-إصر التشريعات على بني إسرائيل يقتضي المماثلة في العقوبات والغضب الإلاهي مع العطاء الحسي الخارق :﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾المائدة : 45 ، قال مجاهد عن ابن عباس قال: كان على بني إسرائيل القصاصُ في القتلى، ليس بينهم دية في نفسٍ ولا جُرْحٍ.[1]

ن-استمرار الإصر والأغلال على بني إسرائيل، إلّا أن يتبعوا النبي الأمي التي تتميز شرعته بالتخفيف، فكان هذا مبتدأ الإشعار لليهود بنسخ المسار الديني التوراتي :﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف:155- 157.

هذه أهم خصائص الطور الإسرائيلي في عهد موسى عليه السلام ، وبقيت خصائص أخرى نبه إليها ابن باديس وهي التي سماها بالمقومات النفسية واعتبرها خصائص فارقة بين الأمتين العربية والإسرائيلية وأهم ما يميزها وجود العزة النفسية عند العرب و وجود الذلة النفسية عند بني إسرائيل.

وقد ذكر ابن خلدون أن من عوائق الملك المذلة والانقياد فهماكاسران لشدة العصبيّة وبالتالي العجز عن المدافعة والمقاومة والمطالبة ، مثل بني إسرائيل لمّا دعاهم موسى عليه السّلام إلى ملك الشّام وأخبرهم بأنّ الله قد كتب لهم ملكها عجزوا عن ذلك وقالوا :﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ المائدة :22 ولمّا عزم عليهم لجّوا وعصوا وقالوا لـه:﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾المائدة :24،وما ذلك إلّا بما حصل فيهم من خلق الانقياد الذّلّ للقبط أحقابا ، فعاقبهم الله بالتّيه في قفر من الأرض ما بين الشّام ومصر أربعين سنة ،وحكمة ذلك التّيه مقصودة وهي فناء الجيل الذي خرج من قبضة الذّلّ والقهر والقوّة حتّى نشأ في ذلك التّيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلّة فنشأت بذلك عصبيّة أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتّغلّب.[2]

هذا وجه من الذلة النفسية التي ميزت بني إسرائيل في عهد موسى وفرعون ، وهناك جانب آخر من هذه الذلة صحبت كل أطوار بني إسرائيل ، وهي ذلة من الله وخزي يلازمهم بما كفروا وبما ظلموا و بما أفسدوا في الأرض - عقوبة لهم - يقول الله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾البقرة:61قال ابن كثير : أي: وضعت عليهم وألزموا بها شر

---

[1] الطبري محمد بن جرير ، تفسير الطبري ، دار المعارف ، دط ، دت ، ج10 ، ص361.

[2] ابن خلدون عبد الرحمن، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، ص176- 177.

عاً وقدراً، أي :لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكون.[1]ومن ذلك ما أصابهم من السبي المتكررالآشوري والبابلي وتسليط اليونان عليهم و البطالسة المصريين ثم الرومان الوثنيين وتشريدهم في الأرض في عهد أدريانوس حيث حرم عليهم دخول أوشليم .ثم الرومان النصارى قديما وحديثا .[2]

وهذا ابن القيم يوقفنا على الخصائص النفسية والاجتماعية لليهود فيصفهم بأنهم الأمَّة الغضبية ، أهل الكذب ، و البهت ، والغدر، والمكر، والحيل ، قتلة الأنبياء ،وأكلة السحت،أخبث الأمم طوية، وأرداهم سجية، وأبعدهم من الرحمة ، وأقربهم من النقمة، عادتهم البغضاء، بيت السِّحر، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء حرمة ، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، ولا لمن وافقهم حق ولا شفقة ، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نَصَفَة ، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمَنة ، أضيق الخلْق صدوراً ، وأظلمهم بيوتاً ، وأنتنهم أفنيةً ."[3]

وبهذا نكون قد ألممنا-باختصار- بأهم ما يميز أمة بني إسرائيل من حيث كونها لا تصلح إلا أن تنهض بنفسها .وأنها أمة معلولة المقومات لا تصلح أبدا لسياسة العالم ، بل هي مصدر خطر على الناس أجمعين .

2-خصائص المرحلة الاستخلافية العربية الإسلامية الأولى :

يرى ابن باديس أن أمة العرب المحمدية هي التي مثلت كمال طور الدين الإسلامي ونهضت به في العالمين .[4]والشواهد على ذلك من القرآن ومن التاريخ كثيرة . وكما ذكرنا خصائص الدورة الاستخلافية لبني إسرائيل سنورد هنا أيضا خصائص الدورة الاستخلافية الأولى للعرب كما يلي:

ا-يتجه الخطاب الإلهي لخاتم الرسل والنبيين باتجاه عالمي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾الأعراف : 157.وعلى أساس ذلك يتجه الخطاب الإلهي للعرب بالخروج إلى الناس كافة و ليس التوطن في بقعة محددة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾آل عمران : 110.[5]

ب-هذا الخروج للعرب كان في صورة شعب قبائل ألف الله بين قلوبها ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾الأنفال: 63.

ج-لم يكن الخروج بمنطق الاستعلاء الذاتي﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ الأنفال :47 .

د-أدى هذا الخروج العربي إلى التفاعل مع الشعوب الأمية - غير الكتابية - تحقيقا لنبوءة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾الجمعة 2- 3.و أحكمت

---

[1] ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ،تفسير القرآن العظيم،وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1419ه/1998م، ج1، ص180- 181.

[2] محمود عبد الرحمن قدح، موجز تاريخ اليهود و الرد على بعض مزاعمهم الباطلة ، كلية الدعوة و أصول الدين ، الجامعة الإسلامية ، مجلة الجامعة الإسلامية ، عدد 107 ، دت، 259- 260.

[3] ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى، المحقق محمد أحمد الحاج،دار القلم- دار الشامية، جدة – السعودية،الطبعة الأولى، 1416ه/1996م. ، ج1، ص227.

[4] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، محرم 1385ه/فيفري 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421ه/2001م ، ج1، مج 15، ص23.

[5] أبو القاسم محمد حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية ، مج1، ص 511.

بمنطق التعارف: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾الحجرات : 13.

هـ-أدى الخروج إلى تكوين الأمة الوسط :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾البقرة 143، فالأمة الوسط حاضنة جغرافيا وحضاريا و تاريخيا لما توسطت العالم بين القارات الثلاث أسيا و إفريقيا و أوروبا ، حيث استوى العربي على سطح حضارات كانت في الأصل منه وله ، من بابل في العراق و إلى قرطاجة في شمال إفريقيا ، حيث وحدّها بلسان ليس من الأساس غريبا عنها ، استعادها أو استرجعها إلى رؤية دينية كانت تتفاعل بحيثيات مختلفة في تركيبها الحضاري .[1]

و-الرابط المركزي للأمة الوسط هو القبلة وتعزيز مكانة مكة كقاعدة مركزية جاذبة للأمة﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾البقرة : 144.

ي-العرب هم القاعدة البشرية لتحقيق غاية دفع الباطل بالحق ، فالعرب هم المسؤولون مباشرة عن القرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾الزخرف 44.

ن-وحتى ينهض العرب بالحق ،جردوا عن تتابع النبوات وجردوا عن تتابع الكتب ، وذلك حتى يتحملوا المسؤولية وهي حاكية الكتاب عبر فهم بشري ،حيث ذكرت خصائص الوارثين للكتاب في :﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾فاطر:32 ، وحيث أجملت خصائص حاكمية الكتاب في :﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾النمل : 91- 93.وقد خرج العرب بالفعل حاملين للكتاب وبخطاب عالمي وأصبحوا أهدى من الطائفتين.[2]

و الخلاصة التي نصل إليها هي النتيجة التي وصل إليها ابن باديس وهي أن الأمتان العربية والإسرائيلية متمايزتان بالأث ر، ومتمايزتان بحديث القرآن عنهما.[3]

فالخصائص الفارقة بين المنظومتين الإسلامية واليهودية هي فوارق جوهرية بين مرحلتين مختلفتين من مراحل دو رة النبوة ، ولكنها لا تنفي وحدة الحقيقة الدينية فـ" الدين في حقائقه ومقاصده العقدية والعبادية والأخلاقية والاجتماعية الـ كلية واحد وهو الإسلام الذي جاء به الأنبياء والرسل جميعا ، ودعوا إليه جميعا وعملوا به جميعا، من لدن آدم إلى محمد عليه م الصلاة و السلام جميعا، وإن تكيفت طرق تبليغ حقائقه للناس، وتنزيلها على أوضاعهم، من بيئة إلى أخرى ومن زمان إلى آخ ر."[4]

---

[1] أبو القاسم محمد حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية ، مج1، ص 278-279.

[2] أبو القاسم محمد حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية ، مج2،ص 276--287.

[3] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، محرم 1385هـ/فيفري 1939م، قسنطينة ، ج1، مج 15، ص 25-26.

[4] برغوث الطيب، مدخل إلى أصول منظور السننية الشاملة ، سلسلة أفاق في الوعي السنني ،أكاديمية الثقافة السننية للتجديد الحضاري ، الطب عة الأولى، 1442هـ/2021م، ص 58

أما فيما يتعلق بالبعد الإنساني الواقعي في استخلاف العرب للنهوض بالإسلام، فإن العرب كانوا رحمة للإنسانية، أذ قذوا الشعوب من سلطة المستولين باسم الملك أو باسم الدين، ونهضوا بالأمم من دركات الجهل والذل والفساد إلى درجات الـ عز و الصلاح و الكرامة، فكانوا في خدمة البشرية ومصالحها، ولم يعرف التاريخ فاتحا أرحم منهم.[1]

رابعا :الشروط السننية الكلية التسخيرية التي رشحت العرب للنهضة الحضارية العالمية

أولى ابن باديس عناية فائقة للسنن التسخيرية في تحليله للشروط المتكاملة لنهضة العرب قبل الإسلام وبمجيء الإسـ لام ، فعرض خصائص العرب الذاتية التي أهلتهم للنهضة الحضارية،وعرض عناية القرآن بالعرب، وعرض دلائل تفوق العرب قديما في المدنية والعمران. ويمكن أن نتناولها في هذه العناصر:1 -سنن الـأنفس .2-سنن الهداية والتأييد 3-وسنن الآفاق.

1 –سنن الأنفس : خصائص العرب الذاتية التي أهلتهم للنهضة الحضارية:

يؤكد ابن باديس أن العرب اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم شرف متأصل، واستعداد كامل، وصفات مهيأة.[2]فأهم خاصية نفسية من مقومات العرب هي العزة النفسية وتقابلها الذلة النفسية عند بني إسرائيل، فالعرب:" قوم ذوو عزة وإباء، خصوصاً في الجاهلية".[3]

ويمكن التذكير بجملة من الصفات التي سادت فيحياتهم ، ودلت على معادن وخامات إنسانية مهمة كان لها أقوى ا لأثر فيما حققته الدعوة الإسلامية من فتوحات عميقة وشاملة في التاريخ الإنساني، ومن هذه الصفات حب الحرية و النزوع إلى الاستقلال لطول عهدهم بالبداية التي حررتهم من الضوابط القانونية ، ومنها الفروسية و الشجاعة و النجدة ، لأن طبيعة الحياة الاجتماعية القبلية التي كانت تطبع النظام الاجتماعي فرضت على الإنسان أن يكون كذلك حتى يعيش و يقاوم عوامل الإخضاع و الانتهاب ، و منها الكرم وسخاء النفس وبذل العطاء للآخرين، ومنها الوفاء بالعهد و رعاية الجوار ، و منها الأنفة من العار فلا قيمة للحياة عندهم إلا مع العزة وسلامة العرض ، ومنها القناعة و الصبر وشدة الثبات على ما يعتقدون أنه حق .[4]

وكانت خلاصة هذه الصفات مجتمعة هي الطبيعة العربية الخالصةالتي: " لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها".[5]ولكن المجتمع العربي في غياب الرؤية الفكرية والعقدية الصحيحة ، التي تحدد له تصوراته حول الله والكون والحياة والإنسان ظل حبيس الثرات القبلي الوثني ، وهوما أطلق عليه القرآن اسم الجاهلية .[6]

فمن سمات هذه الجاهلية ، ومن مظاهر الضعف والاختلال في الحياة الاجتماعية للعرب طغيان العصبية القبلية الذي رسخته الظروف القاسية التي تكتنف وجودهم مما يجعل الاحتماء بالقبيلة أمرافيغاية الأهمية ، ومنها المظالم التي كاذ ت تطيح بكيان المرأة في الأسرة ، فكانت بعض القبائل تئد بناتها خوف الفقر و العار ، ومنها تعاطي الخمور و الإدمان عليها ، و انتشار عادة الميسر إلى درجة المخاطرة بالأهل والمال كله، و أيضا شيوع المعاملات الربوية ، ومنها استحكام عادة التقاتل.[7]

---

[1] ابن باديس عبد الحميد، محمد ﷺ رجل القومية العربية ، الشهاب ، ربيع الأول 1355هـ/ جوان 1936م، قسنطينة ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ،الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج3، مج 12، ص138

[2] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 27.

[3] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 24.

[4] برغوث الطيب، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية ، الطبعة الأولى ، 1416هـ/ 1996م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هيرندن ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ص 173- 175 .

[5] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 24.

[6] برغوث الطيب، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص 176 .

[7] برغوث الطيب، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص 176- 180.

وعلى الرغم مما كان فاشيا في العرب من أمية وجهالة وأخلاق مرذولة وعقائد فاسدة ، وروح قبلية جامدة ، و رغم ضعفهم أمام الأمم والحضارات المعاصرة لهم ، إلا أنهمفيميزان السنن الحضارية كانوا يتوفرون على ذخائر هائلة من الاستعد ادات النفسية والعقلية لإنجاز وثبة تاريخية حاسمة .[1] ذلك أنهم كانوا في مرحلة سابقة على الحضارة حيث سلامة الفطرة ، وبالتالي فالعرب المعاصرون للنبي ﷺ كانوا مستعدين للدخول في دورة الحضارة.[2]

وقد اجتمعت هذه المقومات الذاتية المؤهلة للنهضة الحضارية في مكة المكرمة مبعث الرسالة الخاتمة، حيث المحاف ظة على سلامة الطباع العربية وسلامة لغتها من التأثر بالمؤثرات الخارجية.

فأما مكة فشرفها قديم ، ففيها بين الله الحرام ، وهي مكان أمن وبركة ورزق ، وهي محرمة على كل معتد ، و مقدسة عند العرب.وأما قيمتها الجغرافية التي انعكست على مقوماتها الذاتية فيرى ابن باديس أنها في وسط الجزيرة وصميمها، ووس ط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم.فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم. والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاست عجام. والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية. فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة للمقومات، و لم يحافظ على الطبع العربي الصميم إلاّ صميم الجزيرة ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام.[3]

وهذا الوسط وإن كان عريقاً في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهلياً؛ ولكنه كان بعيداً عن الذل الذي يقتل الع زة والشرف من النفوس؛ والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافي يمكن أن تهذبه . ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذ ر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال.[4] فالذلة النفسية عائق عن النهضة الحضارية .

والسر والحكمة في اصطفاء الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولإنقاذ العالم مما كان فيه من ش ر وباطل هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيئوا لذلك الع مل العظيم[5]. وعليه فإحياء الشرف والحفاظ عليه والحياة به مقصد شرعي كلي إنساني .

2-سنن الهداية والتأييد : عناية القرآن بالعرب

يرى ابن باديس أن الله هيأ العرب تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية،ولهذا ارتبط تاريخ هم بتاريخ الإسلام ، فيجب اعتناء المسلمين بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام.[6] وكيف لا ي كون هذا الاهتمام وقد من الله عليهم بهذا النبي العربي فتفتحت العروبة عن زهرة ماضيها وبذرة مستقبلها ،فوصل الله به مج دهم القديم بمجدهم الحديث، وأشاع لغتهم في الألسنة و عصرهم في الأمم وتفكيرهم في العقول فخلدهم في التاريخ خلود الت اريخ .[7]

---

[1] برغوث الطيب ، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ، ص 187.

[2] بن نبي مالك، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، إصدار ندوة مالك بن نبي ، طبعة 1406هـ/ 1986م، دار الف طر للطباعة والتوزيع و النشر بدمشق ، ص 70.

[3] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 27.

[4] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 27.

[5] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 25.

[6] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص23

[7] ابن باديس عبد الحميد، التجدد في كل مولد ، الشهاب ، غرة ربيع الأول 1353هـ/ أوت 1934م ، قسنطينة ، ج7، مج 10، ص330

وكان من مظاهر هذه العناية اهتمام القرآن بمعالجة مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية وما كان منهم من تحريف لملة إبراهيم عليه السلام ، فكان أول إصلاح متوجها إليهم حتى ينتشلوا من وهدة جهلهم وضلالهم وسوء حالهم،وتستنير عقولهم وتتطهر نفوسهم وتستقيم أعمالهم لتبليغ دين الله وهدي رسوله ﷺ للأمم بالقول والعمل.[1]

وعند السؤال عن مقاصد عناية القرآن بالعرب، يأتي جوابابن باديس دقيقا وشاملا دقة المصطلح وشموليته وهو التربية فيقول:"وأما عناية القرآن بالعرب، فلأجل تربيتهم، لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة، فيجب أن يأخذوا حظهم كاملاً من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيرا من الآيات القرآنية في مرامها البعيدة إصلاحاً لحال العرب، وتطهيراً لمجتمعهم ، وإثارة لمعاني العزة والشرف في نفوسهم."[2]

هي التربية القرآنية للعرب والتي يمكن بيانها بما يلي :

ا- الآيات التي يذكر بها العرب أن القرآن أنزل بلسانهم مثل:﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾الزخرف: 3،﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾يوسف:2.وبيان ذلك أن الذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب. ومن أول القصد تنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم جلبًا لهم، حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم، وإن العرب قوم يعتزون بقوميتهم، خصوصاً في الجاهلية؛ فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم، ويقرب بعيدهم؛ بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم."[3]

ب-توسعة الله في قراءة القرآن على سبعة أحرف، وهي اللهجات التي تجتمع على صميم العربية، وذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها؛ لأن اللسان الذي نزل به لسانها. [4] وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطبهم بتلك اللهجات مما أشعرهم بوحدتهم والتفافهم حول مركز واحد ينتهون إليه ويشتركون فيه.[5]

ج-إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾التوبة: 128، فقد حدب عليها عمره كله يهديها ويحوطها ويجمع شتاتها و يؤلف وحدتها ، يكونها ليكون الله الأمم بها ، فما فارق الدنيا حتى تركها أمة شعرت بعزها وعرفت غايتها وأخذت للحياة عدتها ، تقدمت للبشرية تحمل مشعل العلم و الحرية والإخاء العام .[6]

د-ومن ذلك أنه يذكرها بالشرف لأنها أمة تحيى بالشرف والسمو والعلو،ويحدثها كثيراً عن أمة اليهود التي لا يناديها إلاّ بيا بني إسرائيل؛ تذكيراً لها بجدها الذي هو مناط فخرها ،والأنبياء لم يبعثوا إلاّ في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها".[7]

هـ- ويذكرها بالذكر وهو القرآن: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾الزخرف: 43- 44، يعني أنه شرف لكم وقومه هم العرب ويقول بعد ذلك﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾، ليشعرهم أن عليهم

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، محمد ﷺ رجل القومية العربية ، الشهاب ، ربيع الأول 1355هـ/ جوان 1936م، قسنطينة ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م، ج3، مج 12، ص136

[2] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص23

[3] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص24

[4] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص24

[5] ابن باديس عبد الحميد، محمد ﷺ رجل القومية العربية ، الشهاب ، ج3، مج 12، ص136

[6] ابن باديس عبد الحميد، إلى محمد أيها المسلمون أيها العرب أيها البشر ، البصائر لسان حال جمعة العلماء المسلمين الجزائريين ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1426هـ/ 2005م ، س4، ع164، قسنطينة ، الجمعة 15ربيع الأول 1358هـ/ 5ماي 1939م، ص1.

[7] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 24.

من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم، ولا شك أن ثمن المجد غال.وهذا الشرط واجب الاعتبار والتنفيذ، لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه، ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها.[1]

و-وكما اختار الله العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة، وترجمان هذه النهضة، ولا عجب في هذا؛ فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبداً بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها.[2]

ولما كان العرب رشحوا لهداية الأمم وأن الأمم التي تدين بالإسلام ستتكلم بلسان الإسلام وهو لسان العرب، بين النبي ﷺ أن من تكلم بلسان العرب فهو عربي وإن لم ينحدر من سلالة العرب .[3] وقد استفاد ابن باديس من هذا قاعدة من قواعد د العمران والاجتماع في تكوين الأمم ، إذ وضع النبي ﷺ للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا بحيث تتسع دائرتها لجميع الأمم ا لتي انتشر فيها الإسلام بلغة الإسلام .[4]

والنتيجة أن العرب هيئوا للنهضة الإسلامية العالمية من حيث المخزون النفسي: الشرف والعزة و الإباء واللسان .و من حيث نعمة النبوة فيهم والرسالة الخاتمة التي بها كانت لهم الهداية والعزة والقوة والخيرية والرحمة العامة .

3-سنن الآفاق : تفوق حضارات عاد وثمود وسبأ العربية في المدنية والعمران :

لقد تبين من خلال عرض سنن الأنفس أن العرب يمتلكون ذخيرة نفسية هائلة تؤهلهم للنهضة الحضارية ، ولكن الد اس يعتقدونأن العرب كانوا همجاً لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام .وابن باديس يرى أن العرب مظلومون في التاريخ هذا الاعتقاد ويرى أن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب، حين ذكر ما كان للعرب في تارخهم القديم من مدنيات وحضار ات .فطريقة القرآن أنه:"يعيب على العرب رذائلهم النفسية كالوثنية، ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل، وينوّه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة، واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات."[5]

وشواهد القرآن على إنصافه للعرب كثيرة ، وسنأخذ منها ثلاثة نماذج ، ومنها ذكر عاد قوم هود عليه السلام : "وهي أمة عربية ذات تاريخ قديم، ومدنية باذخة ذكرها القرآن بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى :﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾فصلت:15."[6]

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها ترينا أن عاداً بلغت من القوة والعظمة مبلغاً لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها .حتى أن الله جل شأنه لم يتحدى قولهم :﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ إلاّ بقوته الإلهية، التي تذعن كل مخلوق. ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها.وإن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أمة معتدة بقوتها وعظمتها.ونستنتج من الآية أن عادا بلغت السيادة في سنن الآفاق في عصرها من حيث القوة والتفوق في مظاهر المدنية و فنون العمران ، ويعلل ابن باديس ذلك بأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلاّ بمؤهلات جنسية طبيعية للملك، وتعمير الأرض، وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية.[7]

---

[1] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ،ج1، مج 15، ص 24-25.

[2] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 27.

[3] ابن باديس عبد الحميد ، محمد ﷺ رجل القومية العربية ، الشهاب ، ج3، مج 12، ص137

[4] ابن باديس عبد الحميد ، محمد ﷺ رجل القومية العربية ، الشهاب ، ج3، مج 12، ص138

[5] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، صفر 1358هـ/مارس 1939، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،الطبعة الأولى، 14 421هـ/2001م ، ج2، مج 15، ص276- 77.

[6] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص76- 77.

الإلهية.[1] وشاهد آخر على سنن الآفاق المادية في عاد في قوله تعالى :﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾الشعراء:128-131. البناء و الريع والآية والمصانع، ما هي دلالاتها في سنن العمران البشري ؟

ويجيب ابن باديس بأنها تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية، وهو علم لا يستحكم إلاّ باستحكام الحضارة في الأمة، ومأخذ هذا من قوله :(بِكُلِّ رِيعٍ).والآية في قوله :(آيَةً) هي بناء شامخ، يدل على قوتهم، أو هي آية هادية للسائرين؛ وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم، وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني.وإن المصانع لأول لازم من لوازم العمران، وأول نتيجة من نتائجه.[2]

وفي القرآن شاهد آخر على عظمة عاد في قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ الفجر:6- 8،فهذا الوصف البليغ صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها فالعماد لا تكون إلاّ في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم.[3]

وقد قال تعالى وهو العالم بكل شيء إنه لم يخلق مثلها في البلاد.ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلاّ أمة لا نظير لها في القوة وآثار الحضارة، يتبع بعضها بعضاً في الضخامة و العظمة والوصف القرآني لها، وإن سيق للاتعاظ بعاقبتهم، يدل البحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها.وهم أمة عربية، فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة.[4]

وينتقل ابن باديس بعد ذلك إلى النموذج الثاني إلى ثمود قوم صالح عليه السلام: " وهي أمة عربية، نلعنها بلعن القرآن لها، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة.وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودي عدة آيات بليغة الوصف، ولكن أبلغها وصفاً وأدقها تصويراً قوله تعالى:﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾الشعراء:146- 49."[5]

فحالتهم التي كانوا عليها في تعمير الأرض هي حالة أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها من زرع الأرض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة.وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمها كل ذلك من علم بحال الأرض وطبائعها.وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها.وأحوال الفصول الزمنية، وأحوال الجو، وأحوال التلقيح والآبار والجَني.وعلم بأصناف التمتع من مناظر، ومجالس، ومقامات ومآكل.ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الأيدي السارقة[6].

وقد ذكرهم القرآن في مواضع بإتقانهم لنحت الحجر والشجر آيتا الحضارة المبصرتان. وإن نحت الحجر ليستدعي حاسة فنية خاصة، ويستدعي مع ذلك قوة بدنية؛ وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملابسة فوصفهم مرة أنهم" آمنون "ومرة بأنهم" فرهون "والفاره هو الذي يعمل بنشاط وخفة، ولا يأتيه ذلك إلاّ من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له. ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التي اشتهر بها المصريون القدماء، والرومان، قد رسخت فيهم[7].

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص77

[2] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص77- 78.

[3] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص79.

[4] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص79 .

[5] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ربيع الأول 1358هـ/أفريل 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج3، مج 15، ص129

[6] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ،ج2، مج 15، ص129- 130

[7] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج3، مج 15، ص129- 130

أما النموذج الثالث فيتمثل في اليمن في ناحية أخرى من نواحي الجزيرة، ومن شواهد القرآن على عزها ومجدها وحضا رتها قوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُو رٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِي نَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ سبأ: 15- 19.[1]

يرى ابن باديس أن هذه الآيات استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطواراً اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبد ع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لايتسع غير لسان العرب لحملها :كقوله :(قُرًى ظَا هِرَةً)، و(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)، و(بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا.)حتى إذا وصل القارئ إلى مصير الأمة التي سمع ما هاله من وصفها، واجهه قوله تعالى :(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ).[2]هذه أطوار الأمة الثلاث في ميزان سنن الحضارة وهي الميلاد والأوج والأفول - على حد تعبير م الك بن نبي - أو أعمار الدولة -كما هي عند ابن خلدون-البداوة والتحضر ثم التدهورو الزوال.

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات وأن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال السائر في تلك المدن أو الأراضي ومعنى هذاأن طرق السير كانت منظمة تبعاً لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها. والاك تشافات الأثرية اليوم تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانت من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة، لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض، وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي، والعمل اليدوي، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة، والهند سة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضاً، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة، فما يـ كون السبئيون بلغوا في الهندسة مبلغاً أقاموا به سد مأرب؛ حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ.[3]

و في وصف عمرانهم :﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ يعني أن عمرانهم لم يكن محدوداً وإنما كان متصلاً بعضه ببعض.فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها، فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى، ولا يكون هذا إلاّ إذا كان العمران متصلاً، وهذا هو معنى الظهور في الآية فهو ظهور خاص.[4]قيل كان السائر في في طرائقها لو وضع على رأسه مكتلا لوجده قد ملئ ثمارا مما يسقط من الأشجار التي يسير تحتها . وكان ذلك بسبب تدبير ألهمهم الله إياه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السد العظيم في مأرب[5].

وتقدير السير هو أن يكون منظماً ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة بالساعات، والطرق محدودة بالعلامات التي تضبط المسافة.وقوله تعالى :﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ يرشدنا إلى امتداد العمران مسافة الليالي والأيام، وأن الأمن كان مادا رواقه على هذا العمران ولا يتم العمران إلاّ بالأمن.[6]

---

[1]ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص129- 130

[2]ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص 131

[3]ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص130- 131

[4]ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص 132

[5]ابن عاشور محمد الطاهربن محمد بن محمد الطاهر التونسي،التحرير و التنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر – تونس،1984م، ج23، ص167.

[6]ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص 132

أما ما قصه القرآن عن بلقيس التي كانت ملكة على اليمن، في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد. فقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية.والهدهد الذي شاهد ملك سليمان وعظمته، قد استعظم ملكها وعرشها، وعظمة العرش عنوان عظمة الملك .[1]

وقد استفاد ابن باديس من قصة ملكة سبأ في القرآن إرشاداً إلى ما تقوم به الأممن الناحية السياسية ففيها:

ا - نظام الشورى صريحاً لا موارية فيه.ب - وأن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلا بد أن يسندها بأس شديد.ج - وأن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلاّ في الأمم التي شبت عن طوق البداوة.[2]

خامسا : أخطارمصادمة المنظورالسنني الشامل للنهضة الحضارية

يهدف هذا المبحث إلى التأكيد على أن النهضة الحضارية التي تكون خيرا و بركة على الإنسانية تقتضي تكاملا وانسجـ اما بين المنظومات السننية الكلية الأربعة : الغائية والاستخلافية والتسخيرية والوقائية ، فيأتي هذا المبحث الأخير تتمة منطقيـ ة لما سبقه من مباحث ، به تستكمل الرؤية الشاملة لأطراف الموضوع وذلك بتسليط الضوء على النقائص والاختلالات وبيان خطورتها من جهة و بيان ضرورة التكامل والتفاعل والتوازن بين المنظومات السننية الكلية من جهة أخرى ، وكل ذلك في سيا ق الاعتبار بهلاك الأمم العربية البائدة وزوال حضارتهم،والاعتبار بأحوال وأيام بني إسرائيل، وذلك في عنصرين: 1- أخطار الـ نظرة الجزئية القاصرة في معرفة العرب في القرآن.2-أخطار التعارض بين سنن التسخير الكلية على النهضة الحضارية .

1-أخطارالنظرة الجزئية في معرفة العرب في القرآن :

يتضمن هذا العنصر النظرة النقدية والتقويمية لابن باديس لكل من المؤرخين والمفسرين فيما يتعلق بحديثهم عن الـ لعرب في القرآن.فقد ذكر العرب في القرآن بنوعين من الأوصاف أوصاف مذمومة وأوصاف محمودة ،لكن الناس يركزون عل ى رؤية الأوصاف المذمومة ويعمون عن رؤية الأوصاف المحمودة ، فهذه النظرة الجزئية المبتورة للقرآن جعلت الناس يعتقدو ن صورة مشوهة عن عرب ، يقول ابن باديس:"والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك الـ تخيل الجائر عن القصد.والتاريخ يجب ألا ينظر من جهة واحدة، بل ينظر من جهات متعددة وفي العرب نواح تجتبى ونواح تـ جتنب، وجهات تذم وتقبح، وجهات يثنى عليها وتمدح."[3]

فهاتان أمتان من الأمم العربية- عاد وثمود - أثبت القرآن حالهما، فكان لنا مصدراً تاريخياً معصوماً في إثبات حضارة الشعوب العربية التي برزت فيها الأمم.[4]

وفي مجال نقد الروايات والتحقيق التاريخي يذكر ابن باديس أنه رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير، مما تلقى من غير تثبت ولا تمحيص، من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، وروى شيئاً من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرح الذهبي ببطلانه .ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه، ومجهولة لديه، على

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، ملك النبوة مجمع الحق والخير ومظهر الجمال و القوة ، القسم السادس ، الشهاب ، رجب 1358هـ/أوت 1939م، ق سنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج7، مج 15، ص 338

[2] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص - 133-134.

[3] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص76

[4] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص129- 130

قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام.[1] و كانت مملكته أصغر من ممالك جيرانه مثل مملكة اليمن ومملكة مصر . وكانت مملكة سليمان يومئذ محدودة بالأردن وتخوم مصر وبحر الروم[2] .

وفي حديثه عن مملكة بلقيس أكد ابن باديس على تفوق العرب على الإسرائيليين في الجهد البشري في بناء الحضارة ، وذلك من خلال مقارنة بين خصائص مملكة بلقيس ومملكة سليمان عليه السلام إذ كل ذلك الرقي وتلك العظمة التيبلغتها المملكة العربية اليمنية كانتبنفسها، من تفكيرها وعملها من قرون بعيدة.أما الإسرائيليون- وهم إذ ذاك في القرن الخامس م ن تاريخهم- فإنهم لم يبلغوا في ذلك العهد إلى شيء من ذلك.وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعته له الجن وا لشياطين، كما جاء في آيات من القرآن عديدة.ولم يترك بنو إسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذي بال من الفن والقوة.فأما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد والاكتشافات ما زالت تظهر منه شيئاً فشيئاً[3]. ولكن من جهة أخرى كانت مملكة سليمان ومن قبله مملكة داود عليهما السلام تمثل ملك النبوة وهو مجمع الحق والخير ومظهر الجمال والقوة .[4]

كما استغرب ابن باديس تفسير المفسرين للمصانع بأنها مجاري المياه، أو هي القصور،بسبب النظرة القاصرة الم شوهة عن العرب في القرآن ،وانصرافهم عن التفسير اللغوي الحقيقي ولمعهود الناس في حياتهم، وهو أن المصانع جمع مصن ع من الصنع، كالمعامل جمع معمل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.و إن المصانع لأول لازم من لوازم العمران، وأول نتيجة من نتائجه.[5]

2-أخطار التعارض بين منظومات سنن التسخير الكلية على النهضة الحضارية :

إن الدورة الاستخلافية والحضارية هي دورة سننية إنسانية عامة بينتها آيات القرآن في كثير من قصص الأقوام العر بية الهالكة وكذا قصص بني إسرائيل ،والغاية من هذا القصص النفيس هو التعلم والاعتبار .

وقد اهتم ابن باديس بالاعتبار كثيرا وتكرر ذكره بعبارات : الاتعاظ بالعاقبة والاعتبار والسير في الأرض والنظر في الأ مم الخالية .ففي حديثه عن أمة عاد التي لا نظير لها في القوة وآثار الحضارة - بنص القرآن - نبه ابن باديس إلى أن الأقرب في ا لتذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ) علمية؛ لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولمن لـ م تتيسر له.ولو ائتمرت الأمم الإسلامية بأوامر القرآن، لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة، ويجوبون مجاهلها، ولو فعلوا لأمكن أ ن يعزوا على آثار هذه المدينة في أرض عاد،ويجمعوا بين الرؤية البصرية، والرؤية العلمية، وبين العلم والاتعاظ.[6]

وفي سياق تنبيه الغافلين عن سنن الآفاق في تفسير بعضهم للسائحين والسائحات :بالصائمين والصائمات.اعتبر ابن باديس سياحة الاعتبار والبحث والاستكشاف عبادة إذ:"الحق أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار والقرآن الذي يحث على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين. فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود."[7]

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، جمادى الثانية 1358هـ/ جوليت 1939، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبع ة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج6، مج 15، ص 276

[2] ابن عاشور محمد الطاهرالتونسي،التحرير والتنوير، ج20، ص257

[3] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج7، مج 15، ص 339

[4] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص63

[5] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص78

[6] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص79- 80

[7] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص78

وهذا تخريج فقهي ذو بعد عقدي يدل على سعة مفهوم العبادة عنده ليشمل كل ما أمر الله به سواء ما تعلق بالعبادات الظاهرة والشعائر أو بعلاقة الإنسان بالكون من بحث واستكشاف واستثمار مادي واعتبار علمي سنني .

كما أكد على أهمية البعد السنني في قصص بني إسرائيل،فالحكمة المقصودة من اختيار الله لبني إسرائيل مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة، مجلوة في القرآن في قوله تعالى:﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾القصص: 5-6 .ف الله أراد بما صنع لبني إسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا الإنسان من سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم، وهو إخراج الضد م ن الضد، وإخراج الحي من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة التي لا تملك شيئاً من وسائل القوة الروحية، ولا من وسائل القوة الما دية- من استعباد الأقوياء المتألهين.فهو مثل عملي ضربه الله لخلاص أضعف الضعفاء من مخالب أقوى الأقوياء[1]".

سنة إخراج الضد من الضد وسنة إخراج الحي من الميت - المشاهدة في عالم الأحياء وفي عالم الإنسان- تحققها ما حدث في تاريخ بني إسرائيل،كانت أمة ميتة فأحياها الله بدورة الاستخلاف .فذلك إخراجها من الضد إلى الضد .وتلك نهضتها الذاتية الخاصة بها ، وتلك سنة البعث والتجديد .ولا شك أن تعليم الله الإنسان سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم ضروري تحتاجه البشرية كلها في أطوار حياتها.فما هي السنن التي نتعلمها من قصص بني إسرائيل ؟

إنها سنن الابتلاء والتدافع، وإهلاك المستعلين بالباطل، ونصرة المستضعفين، واستبدال الظالمين، واستخلاف المؤمنين، ووراثة الأرض للصالحين والتمكين لهم في الأرض. يقول ابن باديس:"وجعل المستضعفين أئمة وارثين، وسادة غالبين. والتمكين لهم في الأرض، وإراءة الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم، لكيلا ييأس المستضعفون في الأرض من روح الله.وقد قال موسى لبني إسرائيل تمكيناً لهذا المعنى في نفوسهم:﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾الأعراف: 129.وإلى هذا المثل العملي تشير الآية:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾البقرة:243."[2]

فهذه مجموعة سنن كلها من منظومة سنن الاستخلاف حيث سنة الابتلاء لبني إسرائيل بظلم فرعون ، وسنة التدا فع بما كان بين موسى وقومه وبين فرعون وملئه ،وسنة التداول بما كان من عاقبة ومآل ذلك الحراك بينهما من إهلاك الظالمي ن ونجاة المظلومين ،ثم حصول التمكين بوراثة الأرض في مصر وفي بلاد الشام بعد التيه وبعد دخول الأرض المقدسة .فما الذ ي نستفيده من قصص بني إسرائيل ؟

إن من أهم أسباب أزمة الأمة الإسلامية اليوم هوتعطيلها النظر في السنن والاعتبار بسياقاتها وتأثيراتها وتفاعلاتها، و عدولها عن فهم واستخلاص التدبيرات الإلهية في تشكيل الحياة.ذلك أن السنن هي كليات مرجعية تحكم الحركة الحضارية ع امة للناس كافة، فهي فاعلة على المسلم والكافر، لا تحابي أحدا في محك التعامل معها،فإذا كان تشابه بين أمة اليوم، ووضع أمم سابقة ، فعلينا أن نعلم أن سنة الأولين ماضية في الآخرين ، فالذي انطبق على أهل الكتاب السابقين، سينطبق على أمة القرآن، إذا ما تشابهت الأفعال.[3]

أما عن الأقوام العربية ذات الحضارات القديمة ،فقد تعرفنا من خلال سنن الآفاق على المظاهر المادية لحضارة عا د -وكانت بلاد عاد ما بين عمان وحضرموت شرقا وغربا ومتغلغلة في الشمال إلى الرمال وهي الأحقاف- وقد دل ذلك العمران ال

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 26.

[2] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج1، مج 15، ص 26-27.

[3] الخطيب محمد عبد الفتاح ، قيم الإسلام الحضارية (نحو إنسانية جديدة) ،كتاب الأمة سلسلة دورية تصدر كل شهر عن إدارة البحوث و الدراسا ات الإسلامية ، عدد 139، الطبعة الأولى ،رمضان 1431هـ/ أغسطس - سبتمبر 2010م ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،الدوحة، قطر،ج1، ص 182-183.

باذخ على مؤهلات عظيمة في العلوم والفنون والصنائع وغيرها ، ولكن كيف كانت علاقتهم بسنن الهداية وسنن التأييد ؟ وكيف كانت رؤيتهم للقضايا الكبرى للوجود أو للسنن الغائية ؟ وكيف كان مصيرهم ؟

ويأتي الجواب في قوله تعالى:﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾الأعراف : 65-70.

دعاهم نبيهم إلى عبادة الله الواحد وإلى تقواه وشكر نعمه ناصحا لهم ومنذرا فردوا عليه بالكفر بالله وقد كانوا مشركين وبتكذيب الرسول وبالتسفيه وبالعناد:﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾الأحقاف:26. التمكين والسمع و الأبصار و الأفئدة لم تغن عنهم شيئاإذ جحدوا بصاحب النعم واستهزؤوا برسله .

وإن القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات، وإنما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة، وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادّة الله؛ بدليل قوله لهذه الأمة :﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾هود: 52 ؛ فهو يضمن لهم أنهم إن آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكيناً وبقاء.[1]فلا تعارض بين سنن الآفاق وبين سنن الهداية والتأييد إذ الإيمان والتقوى يؤدي إلى زيادة الخيرات والبركات .

ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي إليها والمنفر من الضعف، وإنما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل.ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ .فمحط الإنكار قوله :﴿تَعْبَثُونَ﴾.ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة، فهو عبث ولهو باطل.[2]

وهكذا نلاحظ أن قوم عاد جانبوا الصواب إذ عمروا الأرض بنعم الله المادية وتمتعوا بها ولكن خالفوا سنن الله في الأنفس وفي الهداية والتأييد فلم يؤمنوا ولم يشكروا بل طغوا وعموا و تجبروا .فقد رأى منهم نبيهم اشتغالا محضا :"بأمور دنياهم ، وإعراضا عن الفكرة في الآخرة والعمل لها والنظر في العاقبة، وإشراكا مع الله في إلهيته، وانصرافا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم ، فانصرفت هماتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب[3]". فتنكبوا بذلك عن المقاصد الغائية من خلقهم وصارت حياتهم عبثا .

وقد كان هذا المقام مقام موعظة متوجهة إلى ما في نفوسهم من الأدواء الروحية وليس في موعظته أمر بتغيير ما بنوه من العلامات ولا ما اتخذوه من المصانع [4].فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية. وأي عاقل يرتاب في أن غالبية المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير،ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم [5].

---

[1]ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص79- 80.

[2]ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص79- 80.

[3]ابن عاشور محمد الطاهر التونسي،التحرير و التنوير، ج20، ص166.

[4]ابن عاشور محمد الطاهرالتونسي،التحرير و التنوير ، ج20، ص167.

[5]ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص78- 79.

وكان من صفاتهم الاجتماعية الشدة في غير الحق والإفراط في الأذى وهو التجبر المذموم ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ولا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش.ولكن البطش فيه ما هو حق، بأن يكون انتصافاً وقصاصاً، وإقامة لقسطاس العدل بين الناس.وفيه ما هو بطش الجبارين، والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك، فبطشه إنما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته وإرضاء لظلمه وعتوه، وتنفيذا لإرادته الجائرة التي لا تبنى على شورى، وإنما تبنى على التشهي وهوى النفس؛ لذلك لم ينقم منهم البطش لأنه بطش وإنما نقم بطش الجبابرة الذي كله ظلم.[1]

وقد كان هلاك قوم هود ، بريح صرصرعاتية ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ فصلت:16.

وأما ثمود- وكانوا بالحجر- وهي بين المدينة المنورة وتبوك في طريق الشام- فالمغزى الذي سيقت هذه الآية لأجله :﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾الشعراء: 146-149. فهو الإنكار عليهم ، إذكيف يستعينون بنعم الله التي يسّرها لهم على الكفر به ؟وكذلكإنذارهم أن الكفر بها وبمؤتيها سيكون سبباً في زوالها.وقد كان ، فقد فتنوا بالناقة ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ القمر:27فعتوا عن أمر ربهم ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ هود: 65.

فلما انقضت الأيام الثلاث لم ينفعهم الندم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ الأعراف: 78و توجه الخطاب إلى المشركين في مكة تخويفا وإنذارا ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فصلت: 13.

وما يستفاد من خبر عاد وثمود هو أن التمتع بنعم الله يقتضي الإيمان به وشكره لا الكفر والطغيان ، فما ينبغي أن يكون تعارض ولا تصادم بين قبول النعمة و شكر المنعم جل وعلا .ومن فعل ذلك عوقب بزوال النعمة والإهلاك مع التعرض لعذاب يوم القيامة الذي ليس له من الله من واق .ولم يغن عنهم امتلاكهم للقوة السننية المادية إذ أخلّوا بالأنواع الأخرى من القوى السننية الروحية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية .

وأما سبأ فحالهم مثل عاد وثمود ، فإنهم لما كفروا بأنعم الله واستعملوها في ما يسخطه، سلط الله عليهم من الأسبا ب ما خرب عمرانهم، وأباد حضارتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.[2]وقدأعرضوا عن الاستجابة لـ دعوة التوحيد بالعودة إلى عبادة الشمس بعد أن أقلعوا في زمن سليمان وبلقيس.[3]

وكان الإرسال إرسال نقمة فإن سيل العرم كان محبوسا بالسد في مأرب فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يسقون جناتهم ، فلما كفروا بالله بعد الدعوة للتوحيد قدر الله لهم عقابا بأن قدر أسباب انهدام السد فاندفع ما فيه من الماء فكان لهم خطرا وإتلافا للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلاف نظام تساقط الأمطار وانعدام الماء وقت الحاجة إليه ، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم. فصار وجودهم في الأخبار والقصص وأبادهم الله حين تفرقوا بعد سيل العرم فكان ذلك مسرعا فيهم بالفناء بالتغرب في الأرض والفاقة وتسلط العوادي عليهم في الطرقات.[4]

وما كان عقابهم إلا نتيجة أعمالهم سنة الله الماضية ، وأما قوله تعالى :﴿قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾فالحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، ومن عمل عملاً يفضي إلى نتيجة لازمة؛ فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله.ولا زال الناس-

---

[1] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج2، مج 15، ص79.

[2] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج3، مج 15، ص 131-132

[3] ابن عاشور محمد الطاهر التونسي، التحرير و التنوير ، ج23، ص169

[4] ابن عاشور محمد الطاهرالتونسي،التحرير و التنوير ، ج23، ص 169- 178

على عاميتهم -يقولون فيمن عمل عملاً يستحق عليه الضرب أو القتل:إنه يقول اقتلني أو اضربني وهو لم يقل .فالمعنى أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم والدال بالمدلول.[1]

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم الله فهي كناية عن محو العمران، وخراب القرى التي كانت ظا هرة متقاربة، حتى لا يبقى منها إلاّ القليل فيتباعد ذلك القليل بخراب الكثير.وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لـ ضبط المسافة، وتعدد المشاهد من الخراب الذي يوحش النفس فيزيد المسافة بعداً على بعد.[2]

لقد فات القوم أن يحصنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل، وكل مدنية لم تحصن بهؤلاء فمصيرها إلى الخراب.والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر، يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها، فالقرآن يذكر لنا كثيراً من مصائر الأمم، حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف في الآخرين، كما لم تتخلف في الأولين.[3]

فيا لهول ما حدث لهم من زوال النعم ونزول النقم، وما أحوجنا إلى معرفة سنن السقوط الحضاري التي تحرك فيذ ا عناصر الاعتبار وتدبر العاقبة والوقاية الحضارية من الأمراض والآفات النفسية والاجتماعية المخربة للأمم حتى تصير أقوا ما بورا بفعل الكفر و الاستهزاء بالرسل والاستكبار والظلم والطغيان والترف والفسوق .فهذه الأمم التي أهلكها الله فتنت بزينة الحياة الدنيا ، فاستغنت واستكبرت فلم تؤمن ولم تشكر الله المنعم واستعملت النعمة في غير ما وجدت لها من الخير والرح مة والعدل. والنعمة تحفظ بالشكر وتزول بالكفر- سنة الله في الأولين والآخرين-.

خاتمة:

حوصلة واستخلاص:عرفنا من خلال خطاب (العرب في القرآن) أن هناك اصطفاء إلهي لبني إسرائيل للطور الثاني من أ طوار دورة النبوة في سياق الابتلاء وما يقتضيه من سنن الاستخلاف والنهضة الذاتية لهم فقط .واصطفاء إلهي آخر للعرب لـ لطور الثالث طور الكمال بختم النبوة لتبليغ رسالة الإسلام والنهضة الحضارية وهذا ما تم في العالمية الأولى. وعرفنا أن الأمم ا لعربية البائدة تفوقت في المدنية والعمران وسنن الآفاق لكن عارضت سنن الأنفس والهداية والتأييد فوقعت في الاستكبار وال عبث والبطش أخرجها عن الاعتدال والصلاح والخيرية .وهذا اختلال كبير في منظومة السنن الكونية التسخيرية أدى في النهاية إلى هلاكها و زوال حضارتها .كما تعرفنا على أهمية منظومة المقاصد العقدية والغائية في بناء الحضارة والحفاظ عليها أو زوالها يعني أهمية الفكرة الدينية الموجهة لحركة الإنسان في الأرض .

نتائج الدراسة:ما يمكن التوصل إليه أن ابن باديس ينظر إلى النهضة كظاهرة اجتماعية متكررة في تاريخ الأمم تحكمها سنن كلية مطردة متكاملة هي سنن الله تعالى في المنظومة التسخيرية .و أن أي خلل بين هذه السنن يؤدي إلى خطر بالأمة.وأن الوقاي ة من خراب العمران تقتضي أربعة شروط وهي الإيمان والشكر والفضيلة (الأخلاق) والعدل . وأن خراب العمران وزوال الحـ ضارة لا يغني عنه قوة المدنية بما فيها من علوم وصناعة مع فساد الحمولة الروحية والأخلاقية والاجتماعية.

آفاق البحث:سؤال النهضة الذي تناوله (خطاب العرب في القرآن) لا شك أنه يشرح الشروط السننية المتنوعة و المتكاملة للنهضة الحضارية ، مؤكدا بشكل واضح على دور العرب المسلمين في النهضة العربية الإسلامية الأولى ، ولا شك أن من مقاصد هـ تناول أزمة نهضة الأمة الإسلامية الراهنة وواجب العرب فيها ،خاصة وأن الأمة الإسلامية خرجت من دورة الحضارة وصارت لها خصائص أخرى تقتضي التجديد والإصلاح حتى تستعيد فاعليتها وتدخل في دورة الحضارة من جديد ، ومن يتتبع ما كتبه ا بن باديس حول النهضة يدرك هذه المسألة بتفاصيل أخرى موضحة ومكملة ،فالبحث يفتح أفقا للتوسع في الموضوع .كما لاحـ

---

[1] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج3، مج 15، ص 132

[2] ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج3، مج 15، ص 133

[3] ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، ج3، مج 15، ص 132

ظت في خطاب (العرب في القرآن) أنه ذكر قواعد العمران الأمر الذي يفتح أفقا للبحث في نظرية ابن باديس في العمران البشري من جميع آثاره .

توصيات ومقترحات:أوصي لمن أراد البحث في موضوع النهضة والحضارة أنه من الضروري تخصيص بني إسرائيل في القرآن وكذا قصص الأقوام مع أنبيائهم بدراسات سننية مركزة ومفصلة .

قائمة المراجع

1 ابن باديس عبد الحميد، العرب في القرآن ، الشهاب ، محرم 1385هـ/فيفري 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج1، مج 15.

2 ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، صفر 1358هـ/مارس 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج2، مج 15 .

3 ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، ربيع الأول 1358هـ/أفريل 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج3، مج 15.

4 ابن باديس عبد الحميد ، العرب في القرآن ، الشهاب ، جمادى الثانية 1358هـ/ جوليت 1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج6، مج 15.

5 ابن باديس عبد الحميد ، ملك النبوة مجمع الحق والخير ومظهر الجمال و القوة، القسم السادس ، الشهاب ، رجب 1358هـ/ اوت 1939، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م ، ج7، مج 15.

6 ابن باديس عبد الحميد، درس ختم الموطأ(1) ، الشهاب ، رجب1385هـ/أوت م1939م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م،ج7، مج 15.

7 ابن باديس عبد الحميد ، محمد ﷺ رجل القومية العربية ، الشهاب ، ربيع الأول 1355هـ/ جوان 1936م، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م، ج3، مج 12.

8 ابن باديس عبد الحميد، التجدد في كل مولد ، الشهاب ، غرة ربيع الأول 1353هـ/ أوت 1934م ، قسنطينة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت،الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م،ج7، مج 10.

9 ابن باديس عبد الحميد، إلى محمد أيها المسلمون أيها العرب أيها البشر ، البصائر لسان حال جمعة العلماء المسلمين الجزائريين ، س4، ع164،قسنطينة ، الجمعة 15ربيع الأول 1358هـ/ 5ماي 1939م.

10 ابن خلدون عبد الرحمن (732هـ-808هـ)،العِبَر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: أ. خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، مراجعة: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ، ج1.

11 ابن عاشورمحمد الطاهربن محمد بن محمد الطاهر التونسي،التحرير و التنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984م، ج20وج23.

12 ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت 751هـ) ،هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى، المحقق محمد أحمد الحاج، دار القلم- دار الشامية، جدة – السعودية،الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م ،ج1.

13 ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت 774هـ)،تفسير القرآن العظيم، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، ج1.

14 ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، 2003م، ج14.

15 أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار الجيل ،1422هـ/ 1999م، ج5.

16 أبو القاسم محمد حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة ، دارابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ،الطبعة الثانية ،1416هـ- 1996م ، المجلد الأول والمجلد الثاني .

17 برغوث الطيب ،موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الطبعة الأولى ، 1413ه/ 1993م، دار الينابيع للنشر و التوزيع ، الجزائر.
18 برغوث الطيب، حركة المداولة الحضارية وشبكة القوانين الكلية المؤثرة فيها منظور سنني قرآني مقاصدي، جانفي 2019، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر.
19 برغوث الطيب، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية ، الطبعة الأولى ، 1416ه/ 1996م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.
20 برغوث الطيب، مدخل إلى أصول منظور السننية الشاملة ، سلسلة أفاق في الوعي السنني ،أكاديمية الثقافة السننية للتجديد الحضاري ،الطبعة الأولى ، 1442ه/2021م.
21 بن نبيمالك،شروط النهضة ،ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، إصدار ندوة مالك بن نبي ، طبعة 1406ه/ 1986م، دار الفطر للطباعة والتوزيع و النشر بدمشق.
22 بن نبي مالك ، القضايا الكبرى، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق سورية ، الطبعة الأولى، 1412ه/1991م.
23 جاسم محمد سلطان، استراتيجية الحراك للإدراك (من الصحوة إلى اليقظة)مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع ، المنصورة ، الطبعة الرابعة ، 1431ه/ 2004م.
24 الخطيب محمد عبد الفتاح ، قيم الإسلام الحضارية (نحو إنسانية جديدة) ،كتاب الأمة سلسلة دورية تصدر كل شهر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية ، عدد 139، الطبعة الأولى رمضان 1431ه/ أغسطس - سبتمبر 2010م ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، الدوحة ، قطر، ج1.
25 الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد،المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي ،دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى، 1412ه.
26 محمود عبد الرحمن قدح، موجز تاريخ اليهود و الرد على بعض مزاعمهم الباطلة ، كلية الدعوة و أصول الدين ، الجامعة الإسلامية ، مجلة الجامعة الإسلامية ، عدد107 ، دت.
27 نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،دار الدعوة بإستانبول، ودار الفكر ببيروت، الطبعة الثانية، 1392ه/1972م، ج 2 .
28 بوعرفة عبد القادر، سؤال النهضة في الفكر العربي المعاصر، https://www.aljazeera.net/blogs/11/4/2019
29 عبد المحسن بن عبد الله الماضي، النهضة والحضارة،الأربعاء 10 أغسطس2022، https://www.al-jazirah.com